أَثَرُ التنغيم في فَهمِ كَلامِ رَبِّ العالمين*

د. مرزوق بدوي**

*تاريخ التسليم: 2016/5/10م، تاريخ القبول: 2016/8/14م.
** أستاذ مساعد/ جامعة النجاح الوطنية/ فلسطين.

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أثر التنغيم في فهم المعاني القرآنية، اعتماداً على التلاوة التنغيمة والقراءة التفسيرية لآيات القرآن الكريم، باعتباره كلام الله المتعبد بتلاوته، الآمر نبَيه صلى الله عليه وسلم بترتيله، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾ (المزمل:4)، إذ يعدُّ حسن الصوت والأداء، الملتزم بأحكام التلاوة والتجويد من الدعائم التنغيمية، وشرطاً من شروط القراءة الصحيحة، والسبيل الواضح للفهم الصحيح لكتاب ربِّ العالمين.

وقد حاول البحث الوقوف على أهمية التنغيم وارتباطه في التعبير عن المعاني النفسية، والتراكيب اللغوية، ارتباطاً جعله من الأساليب ذات التأثير الوجداني في نفس القارئ والسامع.

ومن دوافع الباحث إلى تتبع أثر التنغيم في فهم كلام ربّ العالمين، أن التلاوة التنغيمة لم تحظَ بكثير من الاهتمام كما في التلاوة التعليمية، الأمر الذي أدى إلى غياب القراءة الإبداعية التفسيرية المؤثرة، التي تفضي إلى الفهم والإفهام، والتدبر والتفكير، وسهولة الحفظ والتذكير، وقد توصلت الدراسة إلى ضرورة امتلاك القارئ حسن الصوت والقدرة على التلوين الصوتي والملاءمة بين التلاوة والمعنى.

الكلمات المفتاحية: التنغيم، كلام رب العالمين.

Impact of Toning on Understanding the Word of Allah

Abstract

The purpose of this study is to explain the effect of toning on the understanding the meanings of the Qur'an, analyzing the recitation of the Quran and the interpretation of the verses of the Holy Quran, as it is considered the words of God who commanded the Prophet (peace be upon him) to recite the Quran using toning, as it appears in the verse: (and recite the Qur›an with measured recitation) (Al-Muzzammil: 4). Moreover, melodious sound and good performance, which complies with the provisions of recitation, are considered a main component of toning and a condition to have a correct reading and understanding of the meanings of the Quran.

The research sought to identify the importance of toning and its role in expressing the psychological meanings and linguistic structures, and how it makes an emotional impact on readers and listeners.

One of the motives why the researcher is examining the effect of toning in understanding the Quran is that toning has not received as much attention as instructional recitation, which led to the absence of creative interpretative and influential readings, which in turn leads to understanding, teaching, Thinking, reflecting, memorizing, and remembering.

The study concluded that the reader should have melodious sound, as well as the ability to use diverse toning, and the ability to adapt recitation with meaning.

***Key words**: toning, the words of God.*

مقدمة:

يعدُّ التعبير التنغيمي أسمى أنواع التعبير اللغوي وأوضحها في الدلالة، وهو الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بأسلوبه الراقي، وأنماطه التركيبية المختلفة، وتعبيراته المتميزة في إظهار المعاني والدلالات المقصودة، فيثير في ذهن السامع المقصود من الكلام بقوة الإيحاء، وجلاء الأسلوب وجمال التصوير، فلكل متكلم نغمة صوتية خاصة تناسب حالته النفسية وتدل عليها، ولذلك كان كتاب الله في تعبيره وطريقة أدائه تصاحبه الموسيقى وتغلب عليه النغمات الصوتية، أكثر وقعاً، وأكثر جمالاً، وأشد إشراقاً وتأثيراً، وسبباً من أسباب الخشوع.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة التنغيم في النص القرآني وأثره في فهم كلام ربِّ العالمين، حيث يعدُّ أحد الخصائص المهمة في إبراز المستويات الدلالية، التي تسهم في وضوح التفسير القرآني، ذلك لأن التأثير الصوتي يعدُّ من أهم مداخل النفس البشرية، إذ إن هناك ميلاً فطرياً لدى الإنسان إلى الأصوات الإيقاعية، فالكلام عند إلقائه لا بد أن تكسوه ألوانٌ موسيقية تتميز بها مدلولات الكلام.

فالموسيقى في القرآن لا تنفصل عن النص؛ إذ تفعل فعلها، وتهزُّ القلوب وتنبه النفوس الغافلة، إذا حَسُنَ أداؤها، فالدلالة الصوتية تعدُّ (قطعة من المنظومة العامة للدلالة، تنهض بدور كبير في تحديد واستضاءة ملامح الخطاب، ورفده بظلال من الإيحاءات والقيم، وذلك من خلال استنطاق بنيته الصوتية بجميع أبعاده الجرْسية والإيقاعية والأدائية)[1].

إن الفهم القرآني الصحيح لا يتحقق إلا بمراعاة الأداء المتقن للنغمة الصوتية بتنوعاتها المختلفة، وتكييف الصوت مع أي تغير في الحالة النفسية، وبحسب ما يقتضيه السياق، بهدف التأثير المناسب في نفس القارئ والسامع على حد سواء، ذلك لأن (بين النغم والنظم في القرآن من التآلف والاتساق ما جعل النغم يؤدي وظيفة بيانية مهمة في أسلوب القرآن، فليست النغمة القرآنية مجرد صوت منسجم، بل إن لها صلة بالمعاني، وتشارك في جلاء المعنى حسّاً وفكراً، حيث يأتي جرْس ألفاظ القرآن ونغم سياقه مؤتلفاً مع معانيه، متعاضداً معها في أداء الإيحاءات والآثار النفسية والوجدانية)[2]، ولذلك فإن قارئ القرآن يجب أن يتميز بحسن الأداء، والتجويد المتقن، والتفاعل مع التلاوة، حيث يفهم السامع كلمات ربه جلَّ وعلا، ويبلغ التأثير النفسي مداه.

وبناءً على ما سبق فقد قامت هذه الدراسة على المنهج الوصفي، وتسليط الضوء على الأثر التنغيمي في فهم النص القرآني، من خلال قضايا عدة، اشتملت عليها صفحات هذا البحث.

وقد لا تكون هذه الدراسة الوحيدة في مفهوم التنغيم، حيث سبقتها دراسات عديدة ومتنوعة في الوقوف على دور التنغيم في

إظهار الدلالات اللغوية، إلا أنها قد اجتمعت فيها عدة أسباب تقوم عليها تلاوة المعنى بطريقة تفسيرية لها أثرها النفسي والوجداني.

التنغيم لغة :

وردت كلمة (التنغيم) في لسان العرب في مادة (نغم) على وزن فعل، والنغمة:

جرْس الكلمة وحسن الصوت في القراءة وغيرها، والنغمة الكلام الحسن، وهو حسن النغمة، ومن معانيه الكلام الخفي[3]، وكذلك الإنشاد والتطريب والغناء، وحسن الصوت في الكلام [4].

التنغيم في الاصطلاح:

ظهر هذا المصطلح في الدراسات الصوتية واللغوية، فتعددت التعريفات وبقي الجوهر الواحد، فمنهم من قال إن التنغيم في الكلام (تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين)[5].

ووصفة كمال بشر بقوله: (إن نغمات الكلام دائما في تغير من أداء إلى آخر، ومن موقف إلى موقف، ومن حالة نفسية إلى أخرى، وإمكانات التنويع في الكلام يكسبه معنى: إنه يدل على الحال النفسية للمتكلم، كما يعد عاملا مهما من عوامل توضيح المعاني وتفسيرها، وتمييز أنماط الكلام بعضها من بعض)[6].

وانطلاقا من سياق هذه التعريفات يمكن القول إن التنغيم هو موسيقى الكلمة أو الجملة أو العبارة ، تتغير بتغير الحالة النفسية للمتكلم ، وتعبر عن الأغراض المقصودة من الكلام ، اعتماداً على الترددات والتموجات الصوتية المختلفة من ارتفاع وانخفاض في درجات الصوت ، التي تقوم بالتأثير على التراكيب النحوية والصرفية والبيانية ودلالاتها.

الدراسات السابقة:

لقد أظهرت الدراسات السابقة عناية الباحثين المحدثين بموضوع التنغيم وماله من أثر مهم في تحديد المعاني والدلالات اللفظية، فضلاً عن أثره الفعال في نفوس السامعين، ومن هذه الدراسات:

1. التنغيم في القرآن الكريم، الدكتورة سناء البياتي(2007)، قامت الباحثة بدراسة تحليلية صوتية للمفردة القرآنية حاولت الكشف من خلالها عن روافد التنغيم في القرآن الكريم، باعتبارها من الجوانب المؤثرة في إثارة الموسيقى القرآنية، والتي تؤدي إلى أثر انفعالي في نفس القارئ الذي يلقيه على قلب السامع بأثره وفعله، واعتبرت الباحثة أن التنغيم يمثل جانبا مهما من جوانب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

2. خصائص التعبير القرآني، الدكتور عبد العظيم المطعمي (1992)، وقد أفرد في كتابه. بحثاً منفصلاً عن التنغيم، حيث أطلق عليه النغم القرآني، مشيراً من خلاله إلى أهميته في التعبير الدلالي والتأثير النفسي، مُستعرضاً مصادر التنغيم والعوامل الصوتية التي تؤدي إلى ظهوره في النص القرآني، ودوره في تحديد معاني الألفاظ ودلالاتها.

3. دور التنغيم إبراز دلالات القرآن الكريم، للباحث إبراهيم عبد الرازق، رسالة ماجستير (2014)، حيث تناول فيها أهمية التنغيم ودوره الفاعل في التفريق بين الجمل الخبرية والإنشائية، وكذلك التوافق النفسي والصوتي، من خلال ملاءمة التلاوة للمعنى، وكذلك الكشف عن دوره في الحوارات القصصية القرآنية وإظهار الحالة النفسية للمتكلم.

4. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس (1979)، وقد تناول التنغيم في كتابه بمصطلح (موسيقى الكلام) الذي أشار من خلاله إلى أهمية توافق الكلام مع الحالة النفسية للمتكلم، واعتبر أن التنغيم ما هو العبارة عن ترددات صوتية متتابعة في الانخفاض والارتفاع، تؤدي إلى مدلول الكلام والحفاظ على معانيه.

وقد تعدُّ هذه الدراسة إضافة جديدة إلى جهود السابقين في الإشارة إلى أهمية التنغيم في التلاوة التعبيرية القرآنية، حيث تتبع الباحث أثره في إظهار المعاني، وإثارة نفوس السامعين، ومن ثم الدعوة إلى التزكير على القراءة التفسيرية المؤثرة، وضرورة امتلاك القارئ للصوت الحسن والقدرة على التلوين الصوتي للملاءمة بين المعنى والتلاوة.

وقد أشار الباحث إلى خطورة غياب التلاوة التنغيمية، والاعتماد على القراءة التقليدية حتى لو توافقت مع أحكام التجويد وقواعده، الأمر الذي قد يؤدي إلى انقلاب المعاني إلى غير ما يّراد بها، وخلاصة القول، إن التنغيم هو خريطة المقرئ التي يسير على هديها في تلاوته التنغيمية التفسيرية لكلام ربَّ العالمين لتحقيق الفهم والإفهام.

أهمية التنغيم في النص القرآني:

إن التنزيل الحكيم فوق كل الاعتبارات البلاغية والموسيقية، لكن لغة الموسيقى ومصطلحاتها تسهم في فهم آثاره البليغة، فتكون مهمتها الأساس توضيح روعة النص القرآني أسلوباً وأداءً، وتساعد على بيان إعجازه، ولا يأتي وجود الموسيقى وأهميتها هنا من كونها أحد عناصر الأسلوب الفني ووسيلته، بل يرتبط وجودها بهدف ديني يسهم في التصوير والتعبير والتأثير، وقد استطاع فعل التنغيم والتنوع الإيقاعي، بلوغ مستوى التعبير عن مضامين النص القرآني، من ترتيل السور البليغة والمتنوعة في أهدافها وغاياتها، فوظيفة التعبير الأدبي بصورة عامة (لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ أو العبارات، بل تضاف إلى هذه الدلالة مؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني، وهي جزء أصيل من التعبير الأدبي، هذه المؤثرات هي الإيقاع الموسيقي للكلمات والعبارات، والصور والظلال التي يشغلها اللفظ وتشغلها العبارات زائدة على المعنى الذهني) [7].

ولا شك في طريقة تناول الموضوع، من حيث الأداء المتقن الذي يعطي الألفاظ حقها، هو الذي يمنح التعبير جمالاً وبهجة، إذ إن أي كلام يُؤدى بمستوى تنغيمي واحد، دون وقف أو تغيير في مستويات نطقه ارتفاعاً أو انخفاضاً، يؤدي إلى الرتابة والإخلال بالمعنى، فالكلام يستمد خصائصه من مميزاته الداخلية النابعة من عناصره الصوتية واللفظية المكونة له (فالتنغيم الذي يلابس الكلام المنطوق مع ما يؤديه من تراكمات إضافية، له تأثير واضح في إبرازه، فالحدث الكلامي لا يعرف وجوداً ولا تجلياً إلاّ في الصوت، فالنغمة الصوتية أصل في اللغة المنطوقة، واللغة المنطوقة أصل في اللغة)[8].

ويظهر ذلك جلياً بملاحظة النغمة الصوتية للإمام في صلاة الجماعة، بتكرار جملة (الله أكبر)، فنغمة الصوت هنا هي توجيه للمأمومين في حركاتهم، فهو حين يرفع من السجود الثاني بنغمة صاعدة، عرف المصلون أنها تكبيرة القيام، حيث أن المأموم يتبع الإمام، أما إن جعل النغمة منخفضة مع بعض المدّ، عرف المصلون أن الإمام يريد الجلوس، وفي هذه الحالة إن أخطأ الإمام في النغمة وكانت عالية فيظن بعضهم أنه يريد الوقوف، فيصبح بعضهم جلوساً وبعضهم الآخر وقوفاً، وهذا يكون ناتجاً عن خطأ الإمام في النغمة الموسيقية الصادرة عنه، الأمر الذي يؤدي إلى ارتباك المأمومين، ويطلق على هذه النغمات في المفهوم الموسيقي بالقرار للجلوس، والجواب للقيام، فالأول هابط والثاني مرتفع.

أما إذا نطقت جملة (الله أكبر) في غير صلاة، فإنها قد تفيد التعجب أو الاستفهام أو التوكيد أو الانفعال، دونما تغير في شكل التركيب اللغوي للجملة، وهذا يتبع الحالة النفسية والموقف.

إن الموسيقى في القرآن لها أكثر من هدف ديني، فالإيقاع يساعد القارئ والمستمع على السواء، إن كان في حفظ القرآن أو تلاوته، أو الانفعال والتأثر، ولذلك فإن مصاحبتها للنص القرآني يدعّم محاكاة النفس البشرية والتفاعل معها، ويرى دارسو الموسيقى (أن الرسالة الأولى للدين هي السمو بالروح والنزوع بالحياة البشرية إلى تخليصها من النزوات الجسدية، والارتفاع بها إلى النور السماوي بما يسمو بها من عالم المادة إلى عالم الروح، وما مهمة الموسيقى إلاّ أداء هذه الرسالة والتعبير عنها بإيقاظ المشاعر وإرهاف الحس والسمو بالعاطفة)[9].

ويؤكد علماء النفس وعلماء اللغة (أن الإنسان يميل إلى حفظ الجمل المنغمة بسهولة أكثر بكثير مما يجدون في حفظ غيره من النصوص وتذكرها، ذلك نتيجة لوجود الإيقاع الذي يسهم إلى حد كبير في هذا الجانب ويعززه)[10]، ولهذا كان القرآن خفيفاً على اللسان، قديراً على القلب، سريعاً إلى النفس[11].

وظيفة التنغيم:

تعد الوظيفة الأدائية التأثيرية من العوامل المهمة في إثارة المشاعر ومحاكاة النفوس، إذ إنها تعبر عن الحالة النفسية للمخاطب من خلال التنغيمات التي يسبغها على صوته، إضافة إلى الوظيفة التعليمية التي تقوم بدور فعال في تعليم اللغات والنطق السليم لها.

فالتنغيم في كتاب الله ليس كالتنغيم في كلام البشر، إذ إن الأسلوب القرآني يحمل طابعاً لا يلتبس معه غيره، كما أن موسيقى النص (نمط فريد من نوعه، حتى لم يكن لمن سمعه بدٌ من الاسترسال إليه، فإنه يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية. كأنما يوقع إيقاعاً لا يتلى إلاّ تلاوة)[9].

ولا شك في أن للتنغيم أو التلوين الموسيقي أثراً قوياً في التفريق بين التراكيب الكلامية المختلفة، وتحديد الدلالات فيها، كما أن للمتكلم دوراً مهماً في توجيه المعاني والتمييز بين الجمل الخبرية والإنشائية من خلال النبرة الصوتية، وكذلك التأثير في المتلقي إما بالسلب وإما بالإيجاب، إذ يعتمد ذلك على مستوى النغمة التي تصاحب اللفظ، حيث إن الخطأ في استخدام هذه النغمة قد يؤدي إلى عدم الفهم الصحيح لدى المتلقي، فاختلاف نغمات الكلام شيءٌ طبيعي في اللغة – أي لغة– ولهذا فإنه لابد أن تسير على تموجات موسيقية تتألف منها ألفاظها، حيث يجب أن يكون اهتمامها بالمعنى وارتباطها بأشكال التعبير المختلفة، فالكلام – مهما كان نوعه– لا يُلقى على مستوى واحد بحال من الأحوال[12].

ويمكن القول إن التنغيم عنصر أساسي في تحقيق التواصل بين الأفراد، وتحديد المعاني والدلالات التي تقوم عليها العلاقات الإنسانية، وما يترتب عليها من ثقافات مختلفة ترقى إلى مستوى الفكر الإنساني.

وبما أن اللغة تؤدي دوراً مهماً في صنع الحضارة الإنسانية، وإليها يعزى كل تقدم حضاري باعتباره وسيلة مهمة فيه، فإن التنغيم هو النبض الحي فيها بالإبلاغ والإفصاح عن معانيها والوصول إلى مستوى من الفهم والإفهام السليم.

تلاوة المعنى:

المقصود بتلاوة المعنى القراءة التفسيرية للآيات القرآنية بطرق وأساليب تنغيمية مختلفة، تظهر معانيها، وتبيّنُ مقاصدها، فالألفاظ القرآنية بتشكيلها وتركيبها وتكوينها تحمل موسيقاها بين حروفها وحركاتها وسكناتها، فتحرك المشاعر، وتثير العواطف، وتنبه العقول، فيرقى الناس إلى الاستماع والاستمتاع، ومن ثم الخشوع لعظمة قائلها، وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[13]، فالفهم القرآني لا يقوم على مجرد التلاوة، وإنما لا بد من التكيف النفسي والصوتي مع المعاني، كما لا بد من التدبر والتعمق والتفكر، حتى تتجلى الألفاظ والكلمات بمعانيها في أذن السامع وقلبه.

ولا شك في أن للفهم والتدبر أدواته وهي: العقل، والسمع، والبصر، وإذا لم تكن هذه الحواس على درجة عالية من الصلاحية، فإنها لن تتجاوب مع الآيات القرآنية، وبخاصة وأن الروح القرآنية (ليست مجرد الكلمات المكتوبة في المصحف والتي تقرأ، وإنما الروحانية التي تتجلى من خلال هذه الكلمات والآيات القرآنية، ولذا فإن الكلمات هي أبواب هذه الروحانية، فإذا القارئ لم يتجاوز بقراءته هذه الكلمات، لا يمكن أن يكون لها أثر في حياته ولا وجوده)[14].

فالقرآن الكريم قد اشتمل على ألوان مختلفة من الصور والمعاني الإنسانية، التي تبعث الحياة في القلوب بما تثيره من نوازع المحبة والرحمة والرجاء، وانزجار النفس عن شهواتها ونزواتها ومعاصيها، بسياط الوعظ والتخويف والترهيب.

أقسام التلاوة :

وقد قسمت القراءة إلى ثلاث مراتب رئيسة كماض كان عليها المسلمون الأوائل، وكما أخذوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي كما يلي[69]:

1. **التحقيق**: وهو الإتيان بالقراءة محققة في أعلى درجات الإتقان والتأني، وحقه أن توفى الحروف حقوقها (والتحقيق يكون لرياضة الألسن، وترقيق الألفاظ الغليظة، وإقامة القراءة، وإعطاء كل حرف حقه)[70]. والتحقيق والترتيل في مرتبة واحدة لا فرق بينهما.
2. **الحَدْر**: وهو القراءة السريعة التي يؤديها القارئ من غير

إخلال بالحروف ومخارجها وصفاتها، ويراعي فيها إتقان أحكامها من غير تضييع ولا إخلال بها، ومن أكثر استخداماتها في صلوات التراويح في رمضان وفي الحرم المكي وفي غيره.

3. التدوير: وهو التوسط بين التحقيق والحدر، فيكون أسرع من التحقيق وأكثر ترسلاً واطمئناناً في الأداء من الحدر، مع المحافظة على قواعد التجويد ومراعاتها. ومن الأمثلة على ذلك قراء الحرم المكي في الصلوات، وبعض قراءات الحصري وعبد الباسط والمنشاوي.

فالقرآن هو كتاب الله المنزل على قلب رسوله– صلى الله عليه وسلم – ليكون منهاجاً واضحاً، وشرعاً صريحاً لا محيد عنه، وهو الكتاب الذي يُنقل إلى الناس بكلماته وألفاظه وأصواته التي أرادها الله لرسوله– صلى الله عليه وسلم – وللناس كافة، والشاهد لأهل التقوى والإيمان، أهل القرآن الذين جادوا بأصواتهم وقلوبهم آناء الليل وأطراف النهار،﴿**إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾[71].

وقد آثروا على أنفسهم في الدعوة إلى الله ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [72]، وعَن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يقال لصاحب القرآن حين يدخل الجنة : (اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) [73].

القراءة التفسيرية:

الإنسان كائن ضعيف تتجاذبه الأهواء، وتسوقه النزوات، وقد تداهمه الظلمات من حين إلى حين، حيث إنّ الإيمان ينقص ويزيد، لكن كتاب الله الذي يحمل بين يديه الشفاء والرحمة، كما في قولة تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[20]، وقد خاطب هذا الإنسان بما يخفف عنه وطأة العذاب، ليكون هذا الكتاب بلسماً شافياً من الغرق في ظلمات الدنيا الفانية، وفي هذا يمكن الوقوف على الصور والأساليب البيانية المختلفة، التي تحاكي هذا الإنسان، وفي مقدمتها الموسيقى الصوتية التي تؤديها نغمة التلاوة المتقنة، وجمال الكلمات والعبارات، والأمثلة في القرآن كثيرة لا تنضب، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى في تصوير نعيم أهل الجنة وما يحيط بهم من نعيم مقيم: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾[21]، وفي الصورة المقابلة وصف لشدة عذاب أهل النار وما هم عليه من سوء العاقبة والمصير، وقد قال فيهم –جل وعلا–: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا**﴾[22]، فلا يعقل أن تقرأ الآيات في كلتا الحالتين بنغمة واحدة، فالأولى فيها الفرح والبشارة والسرور، والثانية فيها الذل والانكسار والثبور.

فالدرجة الصوتية لا بد أن تنتقل ما بين انخفاض وارتفاع؛ لتأدية المعنى لا الألفاظ والعبارات فحسب، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾[23]، فلا يمكن قراءتها والنفس ضاحكة مبتسمة مستبشرة، وفي المعنى المقابل قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**﴾ [24]، فهذه الآية تدخل السكينة والحبور إلى قلب المؤمن، وتلك تدخل الحزن والخوف والندم إلى قلب الكافر، فشتان ما بين هذه وتلك في الأداء والنغمة والموسيقى، فآيات الجنة والنعيم فيها الحب والمودة والرحمة، وآيات النار فيها الوعيد والنذير والتقريع، ولكلٍ من هذه الصور إيقاعها الذي يناسبها، ولذلك فإن التلوينات الصوتية تتفاوت في طريقة النطق وتختلف في طريقة الأداء.

ومما يزيد جلاء الصورة مراعاة مقدار الوقف المناسب للمعنى، والالتزام بقواعد التجويد، (فالقارئ المتقن عن طريق وجدنة الأداء، والقراءة عن طريق المعنى أي التلاوة المعبِّرة، يستطيع أن يفسِّر القرآن بأدائه، ويمثل بصوته الأجواء النفسية والمواقف التي يريد القرآن إبرازها، وذلك من خلال تطويع نغمته وتغيُّر درجة صوته مع أي تغيُّر في الظرف والمزاج)[25].

ولقد استطاع كثيرٌ من القراء المجيدين والمبدعين من الانتقال بهذه الصور إلى نفوس الناس وأسماعهم من المسلمين الذين لا يفقهون المعاني، ومن غيرهم ممن لا يعرفون العربية، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أصحاب المدرسة المصرية أمثال عبد الباسط والحصري والمنشاوي ومصطفى إسماعيل وغيرهم من أعلام التلاوات القرآنية في العالم الإسلامي، أولئك الذين صدح الكون بأصواتهم الندية التي تعلّل بها الزمان، فداعبت الآذان، وحركت الوجدان؛ لتخرج الإنسان من غفلة النسيان.

فالقرآن قد تنوعت فيه المواقف والمشاهد والحالات التي تعتري النفس الإنسانية مثل الخوف والقلق، والتشويق والأمل، والترهيب والترغيب، والحسرة والندم، والحزن والفرح، وغير ذلك، ولذا كان لا بد لقارئه أن يفصح عن بلاغته ويبيِّن معانيه في تلاوته، حتى يكون قادراً على التفاعل والإقناع والتأثير، كما قال الزركشي: (من أراد أن يقرأ القرآن بكامل الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديداً لفظ به لفظ المتهدِّد، وإن كان يقرأ تعظيماً لفظ به على التعظيم)[26]، ولا يكون ذلك إلاّ بالتنغيمات اللفظية، واختلاف درجة الصوت، والأداء الصحيح الملتزم بضوابط التلاوة من قواعد تجويدية، وفهم واستيعاب لما يقرأ.

ومهما تعددت الغايات وتغيرَّت النغمات في التلاوة فإن مقصدها الإفهام، ويقول ابن القيم (تلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً)[27].

وفي هذا السياق يمكن للقارئ أن يتمثل النغمة الموافقة للمضمون، والتي تعين على فهم المعنى، والتأثير في السامعين، وإفهامهم ما يحمله النص من دلالات، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه التلاوة التمثيلية، تلك التي تعتمد على قدرة القارئ في التلوين الصوتي، والتكيف الموسيقي مع المعنى، فعلى سبيل المثال: في قوله تعالى: ﴿**أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾[28]، فإن الآية الأولى تقرأ بنغمة منخفضة لأنها قول المشركين، أما الآية الثانية فتقرأ بنغمة صاعدة لأنها الرد القوي على افتراءاتهم، وفي قوله تعالى: ﴿**أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ**﴾[29]، فيها نغمة التوبيخ واستفهام التعجب، وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[30]، النغمة فيها تكون منخفضة لأنها تدل على التطمين بصدق الوعد من الله، أما في قوله تعالى: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ**﴾[31]، فهذه النغمة مباينة للنغمة السابقة، إذ إنها دلالة على التهديد والوعيد فتكون النغمة فيها صاعدة.

ومن خلال هذه الأمثلة تبرز ضرورة الوعي التام بالأداء التنغيمي والقدرة على التكييف بين لمعنى والتلاوة، الذي لا بد للقارئ من الالتزام به للحفاظ على المعاني ودلالاتها.

ومن دواعي تلاوة المعنى كذلك، لا بد للقارئ أن يكون لديه معرفة تامة بمواضع الوقف والابتداء، لما فيه من أهمية كبيرة للفصل بين المعاني، وعدم اللبس في دلالاتها لدى السامع.

الوقف والابتداء:

يعدُّ الوقف والابتداء من العناصر المهمة التي تؤدي إلى التمييز بين المعاني والفصل بينها، واجتذاب السامع إلى ما يتلى من آيات بينات، لأن الوقف لا يكون إلا لسبب غير انتهاء النَّفَس، وإنما للتفريق في المقاصد والغايات، فالقارئ قد يقف أحياناً على ما يخلُّ بالمعنى وهو لا يدري، أو يبتدئ بما لا ينبغي به، وقد جاء عن ابن عمر قوله: (إنهم كانوا يُعلَمون ما ينبغي أن يوقف عنده كما يتعلمون القرآن)[32].

ومن الأمثلة على الوقف: أنه إذا وقف القارئ على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[33]، ظن السامع أنها محرمة عليهم هذه المدة، وحين الوقف كان المعنى كذلك، أما إذا وقف على: (فإنها محرمةٌ عليهم) وقوفاً تاماً ثم استكمل الآية أربعين سنة يتيهون في الأرض، فإن التيه يكون هذه المدة والتحريم أبدي، أما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[34]، فإذا لم يتوقف القارئ على (يسمعون) يظن السامع أن الموتى أيضاً يستجيبون ويسمعون، وكذلك الوقف على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[35]، وهنا يجب الوقوف على (قولهم) وعدم الوصل ؛ لأن في ذلك إيهاماً للسامع بأن المشركين قالوا: إن العزة لله جميعاً، وأن ذلك قد أحزن الرسول –صلى الله عليه وسلم– فيقع اللبس على من لا يعلم.

ولأهمية الوقف في التفريق بين المعاني وإفهام السامع، وإزالة اللبس عن معنى الكلام، أجمع العلماء على ضرورة التزام القارئ به لإتقان الأداء القرآني من حيث إنه (فن جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتب على ذلك فوائد كثيرة؛ واستنباطات غزيرة، وبه تتبيَّن معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات)[36].

التلاوة التنغيمية:

القارئ المجيد يقرأ بقلبه وحسِّه وإيقاع ألفاظه، يثير في نفس المستمع شوقاً وطرباً ومتعة في فهم المعنى الذي يتركه الأثر الموسيقي بجمال صوته وأثر أنغامه، إذ إن (التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح.... والفم بالطعوم الطيبة)[37].

فالخطاب القرآني خطابٌ موسيقي يحاكي الأحاسيس والمشاعر، إلى جانب العقول والأذهان، فتكوينه اللغوي واللفظي ينسجم مع تلك الفطرة التي فطر الله الخلق عليها، لتتجلى نشوة الخضوع ولذة الخشوع، وتتوهج مشاعر الإيمان في فرح وطرب، وتتسامى متعة السجود، فالخالق لمّا خلق المخلوق جعله يميل بفطرته إلى الإيقاع الموسيقي والطرب الجميل، فعوّضه عن طرب المعاصي بطرب قرآني رباني، وعطف عليه بكلام فيه الحب والعفو والرحمة، وهذا لا يحتاج لا إلى صراخ ولا إلى كثرة الضجيج والنشاز، وإنما يحتاج إلى معرفة كيفية الوصول إلى قلب السامع والتأثير بمشاعره، باستخدام نغمة الصوت وحسن جماله.

ومن هنا يأتي تقسيم الفنون السمعية إلى فروع، فهناك إيقاع يثير لحناً شجياً، وآخر يبعث الفرح والسرور، وإيقاع ينزل الخوف والرهبة، وبهذا يتبين تأثير الأداء الصوتي على الدلالات والمعاني، بل أن تحديد المعنى يتوقف أحياناً على الطريقة الأدائية التي يقدمها القارئ للسامع، تحملها تنوعات في الترنيم والتنغيم والتلوين الموسيقي، فإذا كان التنغيم الباكي في آيات التوبة والاستغفار، فلا بد له أن يختلف عن تنغيم الآيات التي تحض على القتال[38].

وبما أن الصوت هو صهوة القراء، بما يتمايزون به و يتزينون، فإن القارئ الماهر هو الذي ينقل المستمع إلى الحالة التي يريد الوصول إليها، وهذا النقل يتناول النواحي العاطفية والعقلية والقلبية، حيث تعدُّ هذه الثلاثة شيئا مهماً لإفهام السامع، يستخدم من خلال تناغماتها التسهيل لتحقيق عنصر التشويق والتطريب، وجعل المستمع تحت تأثير الفكرة المقصود إيصالها إليه، كما أنه هو الذي يرى أنه يحقق أهدافه مستثمراً قدراته الصوتية والنفسية والبدنية، ولتحقيق ذلك لا بد من توافر قدرات مهمة لدى القارئ للتأثير في السامعين، وإثارة انتباههم، **وتطويع قلوبهم للإنصات إلى كلام الله وإدراك معانيه، منها** :

1. القدرة على التلوين الصوتي والتعبير التنغيمي بما يناسب المعاني.
2. تعلم القراءة الصحيحة استماعاً وأداءً، والالتزام التام بأحكام التجويد، والابتعاد عن بعض العادات الصوتية من تمطيط وغناءٍ وغيره، مما يؤثر على صحة التلاوة، التي قد تؤدي إلى انحراف الدلالات والمعاني، حيث إن الصوت هو الوسيلة المهمة في التأثير على الآخرين لإحداث عملية الإقناع والتأثير.
3. التنوع الصوتي وسيلة مهمة تدفع الناس للإصغاء والاهتمام بما يسمعون، والانشغال به، وإدراك عظمته.
4. لا بد للقارئ أن يمتلك صوتاً غضاً طرياً، مفعماً بحلاوة التنغيم وأصول الأداء، وأن يعنى باختيار النغمة التي تساعد الناس على التدبر والخشوع فالقرآن كتاب هداية، والنص القرآني يحمل قيماً روحية وفنية خاصة به، تمكن المستمع أن يكتشف القيم الموجودة فيه، وهنا تكون أواصر العلاقة بين النص والقارئ أقوى بكثير منها في النصوص الأدبية الأخرى، لأن الأمر يتعلق بالإيمان الذي لا بد من وجوده كشرط مهم لإدراك ما فيه من جمال وأداء وإعجاز.

وما من شك أن تحسين الصوت وتجميله، والتطريب بقراءته أوقع في النفوس وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، وذلك عونٌ على المقصود، أي أن في قراءته بحسن الصوت وجودة الأداء بعثاً للنفوس وإحياءً للقلوب، فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القارئ في اختلاف الحالات، (وبحسب كل منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها، إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً، إذ فيه كلامٌ راضٍ، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي)[39].

لقد كان كتاب الله في أسلوبه وطريقة أدائه مفعماً بالموسيقى،

حتى يكون أوقع في النفوس وأكثر تأثيراً بها، لذلك كان الاهتمام بتحسين الصوت وتزينيه ذا اهتمام كبير عند القراء والمهتمين للحفاظ على معانيه، وحمايتها من الانحراف إلى غير مقاصدها، وكان تحسين الصوت أو ما يطلق عليه التجبير الصوتي أحد أهم العوامل في هذا الجانب.

وفي هذا المعنى ما جاء في قول أبي موسى الأشعري للرسول– صلى الله عليه وسلم–: (لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبرَّتها لك تحبيرا) وقد كان عليه الصلاة والسلام يستمع لقراءة أبي موسى من غير أن يشعر به، فلما انتهى قال له – عليه الصلاة والسلام–: (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود)[40].

إن الموسيقى في عبارات القرآن تساير المعنى، وقد قيل إن هذه الموسيقى في الأصوات القرآنية تؤدي دوراً مهماً في تكييف عقل السامع، وتهيئته لتلقي الدعوة، وإن الجمال الفني في القرآن هو رأس ما جذب العرب إلى الإسلام.

التحبير الصوتي:

وهو تزيين الصوت وتحسينه، وقد جاء في لسان العرب في مادة (حَبَرَ) وهو (كل ما حسن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حُبِرَ حبراً وحبّرْ... وحبَّرت الشيء تحبيراً إذا حسَّنته. ... ويعني الحسن والبهاء، ويقال فلان حَسَنُ الحبْر إذا كان جميلاً حَسَن الهيئة)[41].

ولا يخفى أن للتحبير صلة وثيقة بالجمال الصوتي، إذ إن هذا يؤدي إلى سرعة تأثير المعنى في النفوس والقلوب، فالأذن ترتاح إليه، والقلوب تخشع في رحابه، وقد قال – عليه الصلاة والسلام–: (زينوا القرآن بأصواتكم)[42] أي بالمد والترتيل، والمهارة في قراءة القرآن وجودة التلاوة، وقد جاء في تفسير هذا الحديث أن: «الهجو بقراءته وأشغلوا أصواتكم به، واتخذوه شعاراً وزينة لأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القراءة حسناً، وفي أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء بعثٌ للقلوب على استماعه وتدبره والإصغاء إليه،. ... هذا إذا لم يصرفه ذلك عن مراعاة النظم في الكلمات والحروف، فإن انتهى إلى ذلك عاد الاستحباب استكراه[43] وبالإشارة أيضاً إلى هذه الأهمية قول ابن القيم: (إن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل القاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء)[44].

فالقارئ المجيد المحبِّر يمكنه التعبير عن أية فكرة أو معنى، فهو يشتد ويحتد إذا كان المقام يتطلب الشدة والحدة في مثل قوله تعالى في سورة سبأ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[45]، وتتلى بتنغيم عالٍ جداً يظهر فيه التهديد والتوبيخ، ويرق ويلين إذا كان المقام مقام رقة ولين مثل قوله تعالى في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[46]، وكذلك في نفس السورة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾[47]، وفي كلتا الحالتين تظهر رحمة الله في خطابه للمؤمنين، وهذا يحتاج إلى تنغيم منخفض، فالأداء القرآني الحسن مفتاحٌ للقلوب المغلقة يدخلها بلا استئذان، ويحمل بين تموجاته رموزاً للمعاني ومفاتيح للدلالات، إلى درجة تمنحه خاصية التأثير في نفوس الآخرين، حتى ولو كان من غير العرب الذين لا يعرفون العربية، أو ممن لا يفقهون المعاني، وقد أدرك الجاحظ أهمية الصوت، حيث أشار إليها في كتابه (الحيوان) بقوله: (وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ، فقيل له: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به؟ قال : إنما أبكاني الشجاء، وبالأصوات ينوّمون الأطفال)[48].

ومن هنا كانت جاذبية النغم القرآني بحسن الصوت، خصيصة عظمى من خصائص القرآن، تبرز آثارها للعيان، حين يقبل على حفظه وتلاوته ممن لا يجيدون العربية، والتمتع بأنغامه وإيقاعاته دون أن يفقهوا بيانه في بعض الأحيان، وتجدر الإشارة هنا إلى مسابقات فضائية أهل القرآن، التي يشارك فيها العرب والعجم صغاراً وكباراً، بأصوات نديّة طريّة، وقد لا يعرف بعضهم منهم العربية ولا معاني ما يقرؤون، لكنهم يثيرون المتعة والانتباه ويبعثون السكينة والجمال فيما يقرؤون.

وقد روي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كان ليلة ينتظر عائشة – رضي الله عنها – فأبطأت عليه، (فقال: ما حبسك؟ قالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام –عليه الصلاة والسلام – حتى استمع طويلاً ثم رجع فقال: هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله)[49].

ويمكن القول: (إن التحبير الصوتي هو الذي يحقق عنصر الاكتمال للقراءة، إذ هو يشكل واسطة العقد لها، ويمنحها خصوصية وتميزاً، وما كان ليتحقق له ذلك لولا أنه يكسو القراءة ألواناً من الإيقاع تبلغ ذروة التلاؤم والتوافق بين النغمات الداخلية للآيات، وتظهر هذه الألوان الإيقاعية في صورة تنوعات صوتية، طبقاً لطبيعة الدلالات المراد بيانها)[50].

فحسن الصوت مطلوب في التلاوة، ويعدُّ مسألة مهمة، ويجب الالتزام بها لإبراز المعاني والتأثير في السامعين، ويؤكد ابن حجر العسقلاني على هذه الأهمية بقوله: (والذي يتحصل من الأدلة، أن حسن الصوت في القرآن مطلوب، فإن لم يكن حسناً فليحسنه ما استطاع، ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن الحَسَن الصوت يزداد حسناً بذلك، وإن خرج عنها أثّر في حسنه)[51]. وقول ابن حجر يدل على أن حسن التلاوة لا يكون إلّا باهتمام الإنسان في تحسين صوته، وبذل جهده في جودة الأداء، ومن لم يتقيد بهذه الشروط فقد وقع في حرمة الأداء. وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن من أراد أن يقرأ القرآن كما أنزله الله على رسوله – عليه الصلاة والسلام – لا بد أن يبذل جهده في تعلمه، لأنه ليس كل من سمع القرآن يقدر على كيفية أدائه، وليس كل من قرأ القرآن دون النظر إلى آداب تلاوته، يستطيع الإفصاح عن معانيه، والوصول إلى عقول السامعين وقلوبهم، والتأثير بهم فيما أراد الله في كتابه العزيز، ومن أهم الآداب التي يجب أن يتميز بها قارئ القرآن الى جانب القواعد والأحكام أنه عند البداية في تلاوته (ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وإن تلاوة كلام الله غاية وخطر، فتعظيم كلام الله تعظيم للمتكلم، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، ولا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب، ولا بد أن يكون متجرداً عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره، ففي القرآن ما يستأنس به القلب)[52].

ومن هنا تأتي أهمية الترتيل الذي يعدُّ من دواعي حسن الصوت والالتزام بأمر الله في قوله تعالى﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾[53]،

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾[54]، حيث جاء به جبريل من ربه إلى قلب نبيه– صلى الله عليه وسلم–مرتلاً بطريقة ثابتة، اختارها الله لتكون منهاجاً واضحاً لطريقة أدائه من قبل نبيه– صلى الله عليه وسلم –ومن قبل أمته.

الترتيل:

يحتل الترتيل المرتبة الأولى من مراتب فهم القرآن الكريم، والكشف عن قيمه الروحية والفنية والبيانية، وتوصيل رسالته العظيمة، فتحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة، ولقد ورد معنى الترتيل في لسان العرب في مادة (رتل)، والرتل حسن تناسق الشيء، ورتل الكلام: أحسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه، والترتيل في القراءة: الترسل فيها والتبين من غير بغي في التنزيل، وقال ابو العباس: ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين والتمكين، وقال أبو اسحق والتبيُّن لا يتم بأن يعجّل القارئ في القراءة، وإنما يتم التبيين بأن يبين جميع الحروف ويوفيها حقها [55].

وأشار الرازي إلى أهمية الترتيل بقوله: أنه لا بد للقارئ المجيد أن يحسن فن الترتيل، استجابة لأمر الله، واعلم أنه لما أمر رسوله – صلى الله عله وسلم – بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن، حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فيعمد إلى التدبر والتفكر، حيث إن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة[56].

فالنفوس تنفعل والقلوب تلين وترقّ، وتتأثر بسماعها القرآن، ولقد تنبه الكفار إلى هذا الأثر النفسي؛ لأنه تأثير لا يستطيع أن يفسره أحد، تنجذب إليه النفس، وتدخل الرحمة في القلوب؛ لذلك كان رؤوس الكفر يخافون من سماع أتباعهم للقرآن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[57]، حيث كان يطلب الكفار من أنصارهم وأتباعهم أن يشوشوا على قُرّاء القرآن، ليس إلا خوفاً مما يفعله القرآن في اجتذاب النفس البشرية إلى الإيمان.

والشاهد على هذا الموقف، قول ابن المغيرة، حين طلب منه أئمة الكفر في قريش الحُكْم على القرآن بعد سماعه من النبي– صلى الله عليه وسلم – وهو الذي كان معروفاً بتذوقه للأدب وقدرته على التحكيم بين الأدباء والشعراء، حتى عاد إليهم واصفاً القرآن بما يدلُ على انبهاره بما سمع وانجذابه إلى روعة موسيقاه، وسمو تعبيره، بعد أن قرأ عليه الرسول – عليه الصلاة والسلام – قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[58]. فوضع يده على فم الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلاً له لا تكمل يا أبا القاسم، ورجع إلى قومه وقد قال قولته المشهورة: (إن له حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر)[59].

فهذا الحكم من الوليد بن المغيرة ما كان إلا انعكاساً وتأثراً بأسلوب الجمال القرآني المتميز بإيقاعاته المتمثلة في جرْس أصواته وأنغام ألفاظه وعباراته، وكذلك سموّ الأداء الذي دفعه إلى شدة الإعجاب، وقد قرأه عليه الرسول –صلى الله عليه وسلم– مرتلاً، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[60]. في هذا شهادة من الله للذين يحسنون تلاوة القرآن وفهم معانيه، بأنهم مع البررة الكرام الذين تشهد لهم الملائكة يوم الدين، كما يشهد لهم القرآن الكريم (فتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر، بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ) [61]. ومن ذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [62].

وقد قال – عليه الصلاة والسلام –(إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله)[63]، فالترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فغير العربي الذي لا يدرك معاني القرآن يُستحب الترتيل في قراءته لما فيه من ترنم وطرب واستمتاع نفسي، كما أنه أقرب إلى التوقير والتعظيم، وأشد تأثيراً في القلوب.

وفي آداب التلاوة وحسن الترتيل قال الزركشي: (فحقٌّ على كل امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتله، وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه، والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل إلى كل ما بعده، وأن يسكت بين النفس النفس حتى يرجع إليه نفسه، وألا يدغم حرفاً بحرف) [64].

فكلام الله تعالى يستحب أن يقرأ مرتلاً مجوداً بلحون العرب وأصواتها، وتحسين الصوت واللفظ ما أمكن، إتباعاً لما أمر به الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – قوله: (اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتهم، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر ؛ فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح) [65]. وفي ذلك نهي واضح عن التمطيط والتغني في القراءة بطرق وأساليب الغناء المعروفة.

التأثير النفسي والوجداني :

القرآن الكريم هو كلام الله، طرق الآذان فخشعت له القلوب مثلما تصدعت من خشيته الجبال، فكيف لا ترتجف لوقعه السرائر والصدور، وكيف لا تهوي الرؤوس سجوداً لعظمة خالقها وهو القائل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[66]، استقبلته الآذان فاستقر في أروقة الجنان حتى خرج من الحناجر يشوِّق الناس إلى السماع والاستمتاع، والحنين إليه كما يحن الرضيع الى ثدي أمه، فيه الحلاوة والطلاوة، مثلما فيه النذير والنفير، وفيه المتعة والسعادة والنعيم، مثلما فيه العذاب والجحيم، تلهج الألسنة بعباراته وألفاظه وأنغامه الجياشة، وألوانه الموسيقية التي تقرع النفوس وتستلب العقل والشعور بتلاوة آياته، والوقوف عند مفترقاته، يقول القسطلاني : (فإذا جليت آيات القرآن الكريم بالآيات الطيبة مع مراعاة الترتيل على الأسماع، تلقتها القلوب، وأقبلت عليها النفوس، إنما أثمر ذلك تدبر آياته، والتفكر في غوامضه، والتبحر في مقاصده، ليحصل له حينئذ الامتثال لأوامره، والانتهاء عن مناهيه، والرغبة في وعده، والرهبة من وعيده، والطمع في ترغيبه)[67] فقد يقسو القلب وتجمد العين، وتهجر الأفئدة السكينة، وحينئذ ليس من الله من مفر إلا إليه، حيث يضيق المرء بقسوته وجفائه، فيبحث عن الدموع التي تذيب الذنوب، فلا يجد غير البكاء الذي يغسل الحواشي، ولا يجد أحلى من أن يعيش تلك اللحظات في أجواء الملكوت على سفن الكلمات وأجنحة العبارات،

فتقشعر الجلود وتتشوق النفوس، فتأنس الروح مع بارئها وطهارة الدموع تطرق أبواب الإله، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[68].

فالبكاء مستحب مع القراءة وفي أجواءها (وطريقة تحصيله أن يحضر القلب الحزن، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما في كتاب الله من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره فإن لم يحضره حزن ولا بكاء فليبك على فقد الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء)[69].

إن للقرآن سحره الخاص به حتى أنه يؤثر في الذين لا يعرفون معانيه من خلال جرْسه الصوتي، ونغمه اللفظي، وهيئة أدائه، فهو كتاب لا ريب فيه، معجز بفصاحته وبلاغته وموسيقى ألفاظه التي تهتز لها قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لعظيم أثره، وقد روي عن نصراني: (أنه مرَّ بقارئ للقرآن فوقف يبكي، فقيل له: مما بكيت؟ قال: للشجا والنظم)[70]، والشاهد في قوله تعالى :﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[71]، والمقصود في هذه الآية النصارى، فالأثر النفسي الذي يتركه القرآن في الأعماق وتلك النشوة التي يحس بها القارئ أو السامع مهما كان دينه، إنما هي مسلك خفي من مسالكه الغنية بإيحاءاته وجمال ألفاظه وحلاوة أنغامه، يقول أفلاطون: (إن الموسيقى أرفع الفنون وأرقاها، لأنها تؤثر تأثيراً مباشراً في النفس الباطنة، ووسيلة لتحقيق التطهير الروحي وتحرير النفس من ارتباطها بالجسد، كما ينعكس إيجابا على أعضاء الجسم وأجهزته، مما جعلها تأخذ مكانها كأداة للتربية الروحية ووسيلة مهمة لتهذيب النفس وبناء شخصية الإنسان)[72].كما أنها تعد أمراً لا مفر منه في الأسلوب الخطابي المؤثر، إذ تنشأ من تناسق الجمل والعبارات، وتعدُّ أكثر ارتباطاً بالنفس البشرية، وأكثر قدرة على تصوير العاطفة وإثارتها بأنغام الكلام وألحان العبارات التي يتحكم في إيقاعها الصوتي سلامة النظم والألفاظ.

إن روحانية القرآن قد تخللت الأجساد فغيرت من هيئتها فجذبتها إلى السماء تسمو إلى خالقها فكيف تكون أحوال تلك النفوس عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[73]، إنه وعد من الله يحاكي به قلوب المؤمنين وعقولهم ونفوسهم، فتطير مشاعرهم فرحا، وتتجلى أخيلتهم في ملكوت الله ونعيم وعده، إنها عظمة القرآن التي تتمثل فيه عظمة قائله.

وفي الصورة المقابلة تهتز النفوس خوفاً وفزعاً، وتتقلب القلوب والأبصار في مشاهد أهوال يوم القيامة، فتنهمر الدموع وتتجمد العيون، وكان أبو هريرة لما يقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ يحزنها شبه الرثاء[74]، كما كان المسلمون يستحبون البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن، وقد كان الأنبياء أكثر بكاء إذا تتلى عليهم آيات الله، كما في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[75].

وما من أحد يغفل أن (للقرآن صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا، إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة في أخرى ما يخلص منه إليه)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[76]، فأي أثر عظيم تتركه هذه الآيات من سورة (ق) وأي خوف ورهبة وشدة تنتاب النفس حينما تقف أمام صور النهاية، وأي حزن تثيره التلاوة في القلوب، وتجدر الإشارة إلى أن من الذين أبدعوا في تلاوتها حتى البكاء والنحيب القارئ (ياسر الدوسري)، ومن الآيات والسور في القرآن كثيرٌهما يطبع في النفس الهيبة وينبه الناس من غفلتهم.

وقد أشار الرافعي إلى العلاقة بين المعنى والنفس وبين تجليه في الأصوات والحركات فقال: (ليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدّاً أو غنة، أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها)[77] ففي القرآن ما تستأنس به القلوب وتتوق إليه الأرواح، وتتموج به الأنفاس، وتتفكر فيه العقول، ولذلك فإن خير التلاوة هي ما يظهر على صاحبها أنوار التجلي والخشوع.

فالأنغام والألحان منها ما تهفو إليها الأفئدة، ومنها ما يثير الشجا والألم ويحرك الوجد والوجدان، وقد كان إخوان الصفا يستعملون عند الدعاء والتسبيح ألحاناً من الموسيقى تسمى – المحزن–وهي التي ترقق القلوب إذا سمعت، وتبكي العيون، وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب، كما أدرك إخوان الصفا أثر تنغيم القرآن وتجويده في نفوس المسلمين، حيث تتشوق النفوس إلى عالم الأرواح ونعيم الجنان فهو يوقظ قلب قارئه ويجلو إليه فكره ويصرف إليه سمعه [78].

فالأصل في القرآن أن يقرأ بتحزن كما قال – عليه الصلاة والسلام – : (أن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكو فتباكوا) [79] ومن البكاء ما فيه الرحمة والرأفة، والمحبة والشوق، والفرحة والسرور والخوف والضعف، والخشية والخشوع، وليس هناك من شيء أرق للقلوب وأشد استجلابا للحزن من قراءة القرآن (فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشرط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر وكأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه تتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته، وعند وصف الجنة ينبعث ببطانة شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها)[80]. ومن صور الذين تفيض أعينهم من الدمع عند سماع قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[81] إنه القرآن الذي يلامس الوجدان ويهز المشاعر، ويحيي القلوب بالإيمان، فيقبلون عليه ساجدين خاشعين طائعين.

التنغيم وعلم التجويد:

للأداء القرآني الصحيح أسس ومعايير اهتم بها علماء التجويد، حيث أن الانحراف عن القراءة الصحيحة غالباً ما يؤدي إلى اختلاف المعنى أو عدم وضوحه، فمعرفة طرق الأداء والنطق المستقيم، لا يقل أهمية عن معرفة مجمل التراكيب، ولذلك عدّ العلماء علم التجويد وتعلمه فرض كفاية؛ لأنه يبحث في تراكيب الألفاظ القرآنية وصفات الأصوات فيها، كالتفخيم والترقيق والإدغام والإظهار وغير ذلك من الأحكام التي تتعلق بإعطاء الحروف حقها في النطق، لهذا فإن الغاية من التجويد هو تمكين القارئ من جودة القراءة وحسن الصوت والأداء، وعصمة اللسان من اللحن عند تلاوة القرآن، إذ إن تعلمه له أهميه كبرى تعين المسلم على تلاوة القرآن حق التلاوة [82].

وأما التنغيم فإنه يعدٌّ من الجوانب المصاحبة للصوت، وهو من سُبُل فهم القرآن التي تلامس الوجدان، وتبعث الحياة في القلوب، فالارتباط الوثيق بين التنغيم وعلم التجويد مسألة حيوية ذات أهمية عظمى، إذ لا يمكن فصل إحداهما عن الآخر، حيث إن معرفة أحكام التجويد والقراءة الصحيحة، هي التي تؤدي إلى فن التلاوة وإجادة القراءة.

فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقها على أمور أخرى، منها المدُّ بأنواعه والغُنة والسكت وما إلى ذلك من وقف وإدغام، وجميعها تعدّ من مقومات التنغيم وروافده، الذي يقوم عليه تلوين الصوت والاداء. فلذلك فإن لتنغيم مقومات إيمانية ونفسية ولغوية ومعرفية، أي معرفة أحكام التجويد وما يتبعها من وقف وابتداء وإعطاء الحروف حقها، وغير ذلك من الجوانب المتعلقة بها، حيث أن للتلاوة التنغيمية أهداف أساسية منها تجسيد المعنى وإبرازه، وكذلك التأثير والإقناع، ويقول ابن الجزري: (وكما أن الناس متعبِّدون بإتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده، فهم متعبِّدون بتلاوته وحفظ حروفه)[83].

وبما أن موسيقى الكلمة أو الجملة تتغير بتغيّر الحالة النفسية والشعورية، فقد أشار العلماء إلى تعدد النغمات المرتبطة بهذه المواقف واختلافها، فقد نقل عن أحد العلماء القدماء قوله: (ينبغي أن يقرأ القرآن على سبع نغمات: فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فبالتعظيم والتوقير، وما جاء في المفتريات عليه، فبالإخفاء والترقيق، وما جاء في ردِّها فبالإعلان والتضخيم، وما جاء في ذكر الجنة فبالشوق والطرب، وما جاء في ذكر النار والعذاب فبالخوف والرهب، وما جاء في ذكر الأوامر فبالطاعة والرغبة، وما جاء في ذكر النواهي فبالإبانة والرهبة)[84].

ويمكن ملاحظة ما سبق في أن نغمة التهديد في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[85]، مغايرة لنغمة التشويق التي يتلى بها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾[86].

وفي قولة تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ يقتضي نغمة التعظيم والتوقير، وفي قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ تقتضي التنزيه والتقديس، وبذلك فإن التنغيم لا ينفصل عن التجويد بل هو ناشئ عنه، ويزيد التلاوة بهاءً وجمالاً وطرباً.

وفيما يقول عبد الله دراز: (دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله ترتيلا، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً، لا تسمع فيه جرْس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغنّاتها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جرِّدت تجريداً، وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لوجود هذا التجويد)[87].

التنغيم وعلامات الترقيم :

نشأت اللغة كضرورة من ضرورات المجتمع البشري، وبالأصل تعبير شفوي يتم عن طريق النطق ويُستقبل عن طريق الأذن، وما كانت إلا أصواتاً منطوقة، ولما ظهرت الكتابة كانت الحروف والرموز صدىً مكتوباً لنقل هذا المنطوق وتصويره بحروف هجائه.

فالإنسان لم يعرف في بدايته سوى لغة المشافهة، حيث كان يعبِّر من خلالها عن أغراضه ومقاصده وحاجاته، بأصوات مسموعة تتحدد دلالتها بطريقه نطقها، وقد كان من الضروري وبعد ظهور الكتابة أن يجتهد علماء اللغة بابتكار وسائل حديثه تجعل المكتوب مقارباً للمنطوق؛ لأن المنطوق يعتمد في قوة تأثيره على وسائط صوتية ومكونات إيقاعية أهمها النبر والتنغيم، ويتفاوت هذا التأثير بين متكلم وآخر، بحكم تفاوت المواهب الشخصية وتباينها في مدى تحكمها في هذه الوسائط وفن الإلقاء المحافظ على جمالية الأصوات، وحسن الأداء ألذي يميز الكلام المنطوق عن الكلام المكتوب، الذي يفقد الكثير من جماله وقوة تأثيره[88].

ولذلك استعان العلماء على إحداث تماثل تقريبي بين المنطوق والمكتوب بوضع علامات ورموز تساعد في تحديد الغرض المقصود مثل علامات (؟ الاستفهام، !للتأثر، والفاصلة للسكت أو الوقف القصير) بحيث تكون هذه من الضوابط الإملائية عوضاً عن التنغيم الصوتي، فتساعد القارئ على فهم المكتوب وتوضيح معانيه، وذلك لأن التنغيم يقتصر على التراكيب المسموعة، أما التراكيب المقروءة، فقد استعاضت بتلك الرموز وغيرها، والاستنتاج البديهي أن التنغيم تمثله علامات الترقيم؛ لأنه ليس هناك من علامات صوتية تقابله في الجملة، ولأن السماع والنطق كان هو الأساس، والكتابة والقراءة كانت بعد ذلك، والمنطوق والمسموع أكثر استخداماً في الحديث اليومي من المكتوب، فقد اكتسب رتبة أعلى من الترقيم، حيث أن كل تنغيم ترقيم، وليس كل ترقيم تنغيم[89].

وعلى الرغم من أن علامات الترقيم في الكتابة تقوم مقام التنغيم في الكلام؛ (فإن التنغيم يزدوج مع الكلام ويعدُّ جزءاً من نظامه، كما أنه أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة، بما يستخدمه من نغمات أكثر مما يستخدم الترقيم من علامات)[90].

فالتنغيم هو علم وثيق الصلة، وظاهرة لغوية مهمة لما له من تأثير فعال في إيصال المعنى، وإحداث الاستجابة والتفاعل بحيث لا تكون نغماته تميل إلى الرتابة، منساقة على وتيرة واحدة في سياق الكلام، مما يؤدي إلى إثارة الملل والنفور وعدم الفهم، ولذا فإن للتنغيم دوراً كبيراً (في الأداء اللغوي بشكل عام، وفي الأداء القرآني بوجه خاص، فهو بمثابة علامات الترقيم من الكلام المكتوب ؛ عوناً للمستمع في فهم المراد، مثلما أن علامات الترقيم تعدُّ عوناً للقارئ

في الوقوف على المعنى المراد)[91] فالتنوعات الصوتية المستوية والهابطة والصاعدة هي التي تؤدي إلى تغير الدلالة بتغيرُّ النغمة، ويرتبط هذا التغيرُّ ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية التي تطرأ على النغمة الصوتية أثناء الكلام، فكما أن للترقيم رموزه واصطلاحاته؛ فإن للتنغيم مستوياته وطبقاته ودرجاته، فعلى سبيل المثال، قد تسقط همزة الاستفهام استغناءً بالتنغيم، ومن الشواهد على ذلك في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ۞قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ**﴾[92]فلا بد في هذه الآية أن تقرأ كلمة (جزاؤه) بتنغيم الاستفهام، وجملة (من وجد في رحلة فهو جزاؤه) بتنغيم التقرير.

ومن الشواهد كذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ فالتقرير هنا (أتبتغي) فتقرأ بنبرة الاستفهام، إشارة إلى أن الهمزة محذوفة[93].

◄ **فهل يمكن للمكتوب ان يعطي ذات المعنى كما هو في المنطوق؟**

وقد تكون أداة الاستفهام موجودة ولكنها قد تكون تقريرية أو غير ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾[94] إذ أن حرف الاستفهام (هل) لا يشير إلى الاستفهام لأن الدلالة عن طريق التنغيم تقتضي التقرير، ويكون الحرف (هل) بمعنى (قد)[95].

فالاستنتاج الطبيعي من خلال الأمثلة السابقة أن فهم المعنى في حالات كثيرة يتوقف على (الطريقة الصوتية – الإيقاع والتنغيم– ومن هنا تبرز أهمية دراسة اللغة المنطوقة، والنحو التقليدي لم يميز بين اللغة المكتوبة، واللغة المنطوقة، على حين أن لكل منها نظاماً خاصاً قد يختلف اختلافاً كبيراً عن صاحبه، بل إن هذا النحو يركز اهتمامه على اللغة المكتوبة)[96].

فإذا كانت علامات الترقيم تشكل ضوابط رمزية لتمييز المكتوب عن المنطوق، واستجلاء مكوناته الجمالية بما تقوم به من وظيفة دلالية في إظهار الفوارق الأسلوبية التي تمكن القارئ من فهم النص وإدراك فحواه، فإن التنغيم هو ما يميز اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة باعتباره موسيقى الكلام، هذه الموسيقية التي تعدَّ أساساً في التواصل بين الأفراد، فاكتسبت منه اللغة رونقها وجمالها.

وفي القرآن أمثلة كثيرة على مواطن التنغيم التي تحدد تراكيب الجمل وأغراضها، وكذلك في الكلام اليومي والحديث العادي، ومثال ذلك الحديث النبوي الشريف، حيث قال –عليه الصلاة والسلام – : (قتلته وهو يقول لا إله إلا الله)، أي (أقتلته وهو يقول لا إله إلا الله) فهو استفهام استنكاري وتوبيخي، ولا يعرف معناه إلاّ بالتنغيم والسماع، فأنّى للمكتوب هذا لو لم يكن التنغيم هو الأصل والأساس[97].

وهكذا يظهر الفرق بين التنغيم وعلامات الترقيم، من خلال التركيب اللفظي بصورة مختلفة، الأمر الذي يؤكد على أن للتنغيم أنواعاً متباينة من النغمات الصوتية، وأنه لا يمكن إدراكها في اللغة المكتوبة إلا بوضع علامات ترقيم مناسبة، تتماثل مع القيمة الدلالية للكلمة، تلك التي يؤديها التنغيم، بانخفاض درجة الصوت أو صعودها أو استوائها.

الخاتمة:

من خلال ما سبق تبين لنا أن للتنغيم أثر كبيراً في إبراز الدلالات اللفظية في القرآن الكريم، لفهم مقاصده وتدبر معانيه، والتفاعل مع أجوائه الإيمانية، وتحقيق القراءة التفسيرية التي تؤدي إلى جلاء المعنى وصويا إلى الفهم الصحيح، والانفعال النفسي لدى المتلقي.

فالتنغيم يعدّ من الضرورات الملازمة للتلاوة المتقنة، لتحقيق الفهم والإفهام، والفصل بين الجمل الخبرية والإنشائية، يأتي به القارئ المجيد للأداء، باعتماده على فهمه للمعاني والتحكم بقدراته الصوتية، لإفهام السامعين وتحريك مشاعرهم، فالقرآن لغة، واللغة تتميز بخاصية صوتية انفعالية إذا ما أحسن أدائها، ذلك أن لما تأثيراً مباشراً على سمع الإنسان ومشاعره، فالقرآن قد نقل إلينا عن طريق التلقي والسماع، حتى نؤديه بنفس اللحن والأداء الخاص بتلاوته وإحداث أثره، فاجتماع التنغيم والإيقاع الصوتي المنبعث أصلا من النص القرآني يؤدي إلى وضوح الدلالات والتأثير النفسي والوجداني.

وقد أشارت التوجيهات النبوية في كثير من الأحاديث الشريفة إلى ضرورة تحسين الصوت وتجميله في التلاوة، وفي ذلك دلالة على أهمية تفسير المعاني من خلال الأداء الجيد والمتقن والتأثير في السامعين.

ولعل هذه الدراسة تلفت انتباه المهتمين والمتخصصين في الدراسات القرآنية إلى هذا الجانب المهم في تأدية المعنى الصحيح لفهم لكلام رب العالمين، والسعي إلى تحقيق التلاوة التفسيرية بالأداء المؤثر والفعال، بمستوى الاهتمام في تعليم التجويد وقواعده، فضلا عن استخدام بعض الوسائط الصوتية الحديثة التي تهتم بالنطق والأداء السليم بما لا يخالف الشرع والمقصود.

الهوامش:

1. أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1960، ص35.
2. عتر، حسن، بينات المعجزة الخالدة، ط1، دار النصر، حلب ـ سوريا، 1975، ص113.
3. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1956، مج12، ص590.
4. اللجمي، أديب وآخرون، المحيط في معجم اللغة العربية، الناشر المحيط، بيروت، 1994، مج3، ص1262.
5. عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1985، ص194.
6. بشر، كمال، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، 2000، ص 534.
7. قطب،سيد، النقد الأدبي،(د.ت)، بيروت، 1970، ص19 العربي، بيروت، 1990، ص247.
8. السيد، عبد الحميد، دراسات في اللسانيات العربية، دار ومكتبة الحامد، عمان، 2003، ص54
9. حنفي، محمود أحمد، محيط الفنون – الموسيقى العربية قبل الإسلام – دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص62.

10. عبدالله، علي، التعبير الدرامي والتنغيم في ترتيل القران الكريم، دار آمنة، عمان، 2012، ص81.
11. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب
12. الخليل، عبد القادر مرعي، التشكيل الصوتي في اللغة العربية، ط1، عمان، 2002، ص37.
13. سورة الأعراف، الآية 204.
14. حماد، زياد عواد، الإعجاز التأثيري في القرآن، مجلة جامعة دمشق، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، 2002، ص365.
15. لجنة التلاوة، المنير في أحكام التجويد، جمعية على القرآن الكريم، عمان، 2001، ص6.
16. ابن الجزري، عمر بن محمد، التمهيد في علم التجويد، ط1، تحقيق علي حسين البواب، مكتبة العارف الرياض، 1985، ص61
17. سورة الإسراء، للآية 78
18. سورة فاطر، الآية 32
19. سنن أبي داوود، والترمذي
20. سورة الإسراء، الآية 82
21. سورة فاطر، الآية 33.
نفسه، الآية 36.
22. سورة الزمر، الآية 71.
23. نفسه، الآية 73.
24. حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1993، ص164.
25. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط2، دار الفكر، بيروت، 1972، ج1، ص 450.
26. الجوزية، ابن قيم، مفتاح السعادة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1323 هـ، ج1، ص 44.
27. سورة مريم، الآية 91، 92.
28. سورة التوبة، الآية 38.
29. سورة آل عمران، الآية 139.
30. نفسه، الآية 151.
31. الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ص342.
32. سورة المائدة، الآية 26.
33. سورة الأنعام، الآية 36.
34. سورة يونس، الآية 65.
35. سورة البقرة، الآية 81، 82.
36. الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ص342.
37. الجوزية، ابن قيم، مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار كتاب العربي، بيروت، 1972، ص490.
38. الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص181.
39. الغزالي، ابو حامد ابن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، مج1، ص 288.
40. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب فضائل القرآن، ج9، ص 115.
41. بديوي، يوسف علي، حق القرآن على الناس، ط1، دار ابن كقير، دمشق، 1993، ص.
42. المنياوي، محمد عبد الرؤوف، بن علي، فيض القدير – شرح الجامع الصغير، ط2 دار المعرفة، بيروت، 1972، ص 89.
43. نفسه، ص68.
44. الجوزية، ابن القيم، مدارج السالكين، 488.
45. سورة سبأ، الآية 26.
46. سورة التحريم، الآية 6.
47. نفسه، الآية 8.
48. الجاحظ، ابو عثمان عمرو ابن بحر، الحيوان، ط1، تحقيق فوزة عطوه، مكتبة النوري، دمشق، (د.ت)، ج4، 191.
49. رواه الترمذي وابن ماجة، ومسند الإمام أحمد.
50. بني دومي، خالد قاسم، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، إربد – الأردن، عالم الكتب الحديث، 2006، ص 141 – 142.
51. ابن حجر العسقلاني، احمد علي، فتح الباري، المكتبة السلفية، القاهرة، (د.ت)، ج13، ص 528
52. الغزالي، ابو حامد بن محمد، إحياء علوم الدين، ص 281.
53. سورة المزمل، الآية 4.
54. سورة الفرقان، الآية 32.
55. ابن منظور، لسان العرب، مج11، ص 265.
56. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، 1990، مج4، ج3، ص69.
57. سورة فصلت، الآية 26.
58. سورة النحل، الآية 90.
59. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 200، ص 371.
60. سورة البقرة، الآية 121.
61. الغزالي، ابو حامد بن محمد، إحياء علوم الدين، ص 287.
62. سورة الزمر، الآية 23.
63. الشبراوي، عبد العزيز، موسوعة البيان لقراءة القرآن، الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص12.
64. الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ص 449.
65. السيوطي، جلال الدين، الجامع الصغير، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج1، ص 199.
66. سورة الحشر، الآية 21.
67. السعيد، لبيب، الجمع الصوتي الأول للقرآن، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص 255.
68. سورة الإسراء، الآية 109.

69. الغزالي، أبو حامد بن محمد، إحياء علوم الدين، ص 279.
70. اليحصبي، القاضي عياض بن موسى، الشفا بتصريف حقوق المصطفى، مكتبة الفارابي، دمشق، ص 529، 530.
71. سورة المائدة، الآية 83.
72. التيجاني، عبد الرفيع، الموسيقى وتهذيب النفس،www.nafat.not
73. سورة فصلت، من الآية 30 – 32.
74. السعيد، لبيب، الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص 250.
75. سورة مريم، الآية 58.
76. سورة (ق)، من الآية 19 – 22.
77. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 215.
78. إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، الدار الإسلامية، بيروت، (د.ت)، 187،188
79. أخرجه ابن ماجه.
80. الغزالي، أبو حامد بن محمد، إحياء علوم الدين 286.
81. سورة الإسراء، الآية 108، 109.
82. نصر، عطية قابل، غاية المريد في التجويد، ط4، مكتبة الحرمين، الرياض، (د.ت)، ص 110.
83. ابن الجزري، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، ط1، تحقيق محمد تميم الزغبي، مكتبة الهدى، جدّة، (د.ت)، ج1، ص 38.
84. الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط1، مطبعة الخلود، بغداد، 1986،ص 480.
85. سورة التوبة، الآية 74.
86. نفسه، الآية 111.
87. دران، عبد الله، النبأ العظيم، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1985 ص 115.
88. الترقيم والتنغيم. .. استنطاق المكتوب للكشف عن المنطوق -maamri ilm2010.yoo7.com
89. المحمدي، عبد العزيز بن سعود، علامات الترقيم والتنغيم ومتممات الكتابة العربية almajma3-blogspot.com
90. المسدي، عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1981، ص 255، 256.
91. بني دومي، خالد قاسم، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ص 142.
92. سورة يوسف، الآية 74، 75.
93. سورة التحريم، الآية 1.
94. سورة الإنسان، الآية 1.
95. السيد، عبد الحميد، دراسات في اللسانيات العربية، ص 61.
96. كشك، أحمد، من وظائف الصوت اللغوي، ط2، القاهرة، 1997، ص 61.
97. المحمدي، عبد العزيز بن سعود، علامات الترقيم والتنغيم ومتممات الكتابة العربية.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الحديث الشريف.
3. إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، الدار الإسلامية، بيروت (د.ت).
4. انيس، ابراهيم، دلالة الالفاظ، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1960.
5. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، مكتبة دار السلام، (د.م)، 1997.
6. بشر، كمال محمد، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، 2000.
7. بديوي، يوسف علي، حق القرآن على الناس، ط1 دار ابن كثير، دمشق 1993.
8. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ط1، تحقيق فوزي عطوي، ط1، مكتبة النوري، دمشق، (د.ت)
9. الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الاعجاز ، ط1، المكتبة العصرية، بيروت (د.ت).
10. ابن الجزري، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، ط1، تحقيق محمد تميم الزغبي، مكتبة الهدى جدّة، (د.ت).
11. الجوزية، ابن القيم، مفتاح السعادة، مطبعة السعادة، ج1، القاهرة، 1323 ه.
12. الجوزية، ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972.
13. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري، المكتبة السلفية، القاهرة (د.ت)
14. حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1993.
15. حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1985.
16. الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ط1،مطبعة الخلود، بغداد، 1986.
17. حنفي محمود حمد، محيط الفنون_ الموسيقى العربية قبل الإسلام، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
18. الخليل، عبد القادر مرعي، التشكيل الصوتي في اللغة العربية، ط1، عمان، 2002.

    بني دومي، خالد قاسم، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، جدارا للكتاب العالمي، عمان، 2006.
19. الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، مج14، ج3، طهران، 1990.
20. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990.
21. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط2، دار الفكر، بيروت، 1972.

22. السعيد، لبيب، الجمع الصوتي الأول للقرآن، دار المعارف، القاهرة، 1978.

23. السيد، عبد الحميد، دراسات في اللسانيات العربية، دار ومكتبة الحامد، عمان، 2003.

24. السيوطي، جلال الدين، الجامع الصغير، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

25. الشبراوي، عبدالعزيز، موسوعة البيان القراءة القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994.

26. شلول، محمد، إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة، ط2، دار السلام، القاهرة، 2007.

27. عبد الله، علي، التعبير الدرامي والتنغيم في ترتيل القرآن الكريم، دار آمنة، عمان، 2012.

28. عتر، حسن، بينات المعجزة الخالدة، ط1، دار النصر، حلب، 1975.

29. عمر، احمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1985.

30. الغزالي، ابو حامد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، مج1، بيروت، (د.ت).

31. قادر، فخرية غريب، تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، 2010

32. قطب، سيد، النقد الادبي، (د.ن)، بيروت، 1970.

33. كشك، احمد، من وظائف الصوت اللغوي، ط2، القاهرة، 1997.

34. لجنة التلاوة، المنير في أحكام التجويد، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، 2001.

35. اللجمي أديب آخرون، المحيط في معجم اللغة العربية، ط2، دار النشر المحيط، بيروت، مج3، 1994.

36. المسدي، عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1981.

37. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1956.

38. نحله، محمود أحمد، لغة القرآن في جزء عمّ، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

39. نصر، عطية قابل، غاية المريد في علم التجويد، ط4، مكتبة الحرمين، الرياض، (د.ت).

40. ياسوف، أحمد، جماليات المفردة القرآنية، ط1، دار المكتبي، دمشق، 1994.

41. اليحصبي،القاضي عياض بن موسى،الشفا بتصريف حقوق المصطفى،مكتبة الفارابي، دمشق،(د.ت)

الدوريات:

– التيجاني، عبد الرفيع، الموسيقى وتهذيب النفس www.nafahat.not.

– ابو حماد،زياد عواد.الإعجاز التأثيري في القران الكريم،مجلة جامعة دمشق، مج18،العدد الاول، 2002.

– الحمدي، عبد العزيز ابن سعود، علامات الترقيم والتنغيم ومتممات الكتابة العربية.

Almajma3.blogspot.com

– الترقيم والتنغيم. . استنطاق المكتوب للكشف عن المنطوق

Maamri-ilm2010.yoo7.com